العلمانيّة

تمويهُ اللَّفظ، وخُبث الأهداف

د. علي محمد جريشة*

قد تُشْعِر كلمةُ «العلمانيّة» في اشتقاقها أنَّها تعني رفعَ شعار العلم، ومن ثَمّ فلا تعارضَ بينها وبين الإسلام، بل إنَّها إحدى وسائل الإسلام وبعضُ أهدافه! وهو ما نَحسب أنَّهم قصدوا إليه حين ترجموا معنى الكلمة إلى العربيّة، ليَقع المسلمون في هذا الوَهْم.

العلمانيّة ترجمة للكلمة الإنجليزيّة Secularity، وهذا اشتقاق من Secular، وهي مرادفة للكلمة الإنجليزيّة Unreligious، أي «لا دِينِيّ» أو «غير عَقَدِيّ»، ومن ثمَّ كانت العلمانيّة تعني اللّادينيّة! ومن هنا نفهم سرّ اختيار الكلمة للتّعبير عن المقصود من «دون صَدْمٍ للمشاعر والأحاسيس»!

العلمانيّة في الغرب

لم يكُن غريباً أن تجد العلمانيّة مكانها في الغرب؛ فقد فَرَضت ذلك ظروفُ الغرب نتيجة تسلُّط الكنيسة وتحالفها مع الظَّالمين على شعوب الغرب المختلفة، ووقوفها في وجه كلّ تَفَتُّحٍ فكريٍّ أو كشفٍ علميٍّ، وتجاوزها هذا الحَجْر على العقول إلى حَجْرٍ على القلوب، حين فَرَضَت صُكوك الغفران وقرارات الحرمان، وراحت تُتاجر بها وتتَّخذها وسيلةً للكسب الحرام. وغَرقت أوروبا في دماء ضحايا الكنيسة، حيث سقط المئات بل الآلاف تحت مقاصلِ محاكمِ التّفتيش ومشانقِها، غير مَنْ غُيِّبوا في غياهب السُّجون.

إذا كانت سُنَّةُ الله تعالى في الكون أنَّ لِكُلِّ فعلٍ ردَّ فعلٍ مساوياً له في القوّة ومضاداً له في الاتِّجاه، فلقد وقع الصّراع، صراعَ المجتمع مع الكنيسة، وانتهى بإعلان العلمانيّة التي تعني فصلَ الدِّين عن الدَّولة، وتُقلّص سلطان الكنيسة داخل جدرانها.

وفضلاً عن أنَّ ظروف أوروبا التّاريخيّة كانت تُبرِّر انتشار العلمانيّة وفصل الدِّين عن الدولة، فلقد كانت ظروف الدّيانة المسيحيّة -بعد ما أُدخل عليها من تحريفٍ كان اليهود وراءَ أكثره- تسمحُ كذلك بوجود علمانيّة إلى جانب الدِّين.

وليس غريباً بعد ذلك أن يكون اليهود وراء فَصْل الدِّين عن الدَّولة، كما صرَّح بذلك كاتب أميركيّ (وليام غاي، في كتابه أحجار على رقعة الشطرنج)، بغيةَ القضاء على بقايا الدِّين الذي حرَّفوه بتعطيلِه وحبْسِه عن المجتمع داخل جدران الكنيسة.

تصديرُ العلمانيّة إلى الشّرق

وحين أُريدَ نقلُ العلمانيّة إلى الشّرق الإسلاميّ، فاتَ المُسخَّرين لهذه المهمّة من بني جلدتِنا، أنَّه ليس في تاريخنا ما يبرِّرُ فصلَ الدِّين عن الدّولة، فلم يكن ثمّة اضطهادٌ من علماء الدّين المسلمين للعلم أو للعلماء المشتغلين بالعلوم الأرضيّة، ولم يكن في تاريخنا الإسلاميّ محاكمُ تفتيش، وصُكوكُ غفران، وقراراتُ حرمان.

والذين انحرفوا من العلماء عن جادَّة السَّبيل إلى مُمالأة الحكّام، لَفَظَتهم الأمّةُ وجَعَلَتهم وراء ظهورها، والّذين كانوا لسانَ صدْقٍ حَمَلَتْهم في حنايا صدورها وقدَّمتهُم في أوَّل صفوفها. كذلك لم تَكُن الدِّيانةُ الإسلاميّة لِتَسمح بالفصل بين الدِّين والدَّولة، لأنَّ الدَّولة في فقه الإسلام قِسْمٌ للدِّين لا قَسِيم.

كذلك لم تكن الدِّيانة الإسلاميّة لتسمحَ بقيام العلمانيّة إلى جوار الإسلام بمقولة أنَّ الإسلام يبقى داخل دائرة العقيدة والشّعيرة، وتعمل العلمانيّة في دائرة الشّريعة، لأنَّ الإسلامَ عقيدةٌ وشعيرةٌ وشريعةٌ، وهو في هذا لا يقبل التَّجزئة ولا التّفرقة، ولا يرضى أن يكون مع الله تعالى أربابٌ آخَرون، أو قياصِرةٌ آخرون يَدينُ لهم النّاسُ في مجال الشّريعة، كما يدينون لله تعالى في مجال العقيدة.

وعلى فرْضِ أنّ ما في الغرب من مَدَنيّة، جاء نتيجةَ الفصل بين الكنيسة والدّولة، فإنّ الشّرقَ الإسلاميّ لم يجنِ من تنكُّره للإسلام غيرَ حرمان الدّنيا والدّين معاً، ليقنعَ من ثمّ بقشورٍ تُورثُه التَّرَف والدَّعة لا غير، وتُبْعِدُه عن الإبداع، وعن تأدية الدّور الرّساليّ الذي انتدبَه إليه اللهُ تعالى بنصّ القرآن: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾ آل عمران:١١٠.

(بتصرّف)

* أستاذ جامعي من الحجاز